

الإمام محمد بن عبدالله الخليلي ودوره الحضاري والعلمي في عُمان، مجلة

الخليل العدد ٤

"تلتقي اليوم في هذه الندوة الدولية (الإمام محمد بن عبدالله الخليلي ودوره الحضاري والعلمي في عُمان) عملاً بتوجيه رائد نهضة عمان الحديثة جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم الذي دعا إلى العناية بالتاريخ ودراسته دراسة موضوعية محايدة لا مبالغة فيه ولا تزئيد. والاهتمام بالإمام الخليلي إن هو إلا اهتمام بحقبة كاملة من حقبة التاريخ العماني الكبير". بهذه الكلمات افتتحت جامعة نزوى هذه الندوة الدولية التي أقيمت في حرمها في الفترة من ١٤ إلى ١٦ مارس ٢٠١٦م؛ بمشاركة أساتذة ومشايخ وعلماء مختصين من عُمان والجزائر وتونس وليبيا، تحت رعاية صاحب السمو السيد أسعد بن طارق آل سعيد.

وقد صدر مكتب النشر التابع لمكتب نائب الرئيس للدراسات العليا والبحث العلمي والعلاقات الخارجية بالجامعة، الأعمال المحكّمة والسير المقدّمة للندوة في عدد خاص من أعداد مجلة الخليل، مجلة جامعة نزوى للدراسات الأدبية واللغوية والقرآنية - مجلة علمية محكّمة نصف سنوية، وهو العدد الرابع، يناير ٢٠١٨م، الذي يقع في ٩١٠ صفحات من القطع المتوسط، ويضمّ ٣٢ بحثاً وكلمة وملاحق مستقلة في آخر الكتاب للتعريف بالأعلام والأماكن والقبائل الواردة في الأبحاث والدراسات، وتنقسم هذه الملاحق إلى أربعة أقسام:

- ملحق تراجم الأعلام.
- ملحق تعريف القبائل.
- ملحق تعريف الأماكن والبلدان.
- ملحق المصطلحات المحلية.

ويشتمل العدد الرابع لمجلة (الخليل) على الكلمات الرسمية للمنظمين، والبيان الختامي، والقصائد الشعرية التي أُلقيت في الندوة، وكلمة المتحدث الرئيس سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام للسلطنة، وكلمة

فضيلة الأستاذ الدكتور فرحات بن علي الجعبري، ومقدّمة مختصرة عن الإمام وسيرته وحياته، والبحوث المحكّمة التي قدّمت في الندوة. كما يشتمل العدد أيضا على السير التي رواها معاصرو الإمام الخليلي، وما تحمله الذاكرة عن حياة رجل تعامل معهم، وتعاملوا معه، وأثر في فكرهم وسلوكهم ومشاعرهم وأحاسيسهم، وتأثروا بشخصيته وعطائه وعلمه.

يقول الإمام محمد بن عبدالله الخليلي: "الله الله فيما يجمع الكلمة والتألف، ويُبعد الشحناء والتخالف، ولا تكونوا كالذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا، فما مُني الإسلامُ بشيءٍ أعظم وأطمّ من التخالف المؤدي إلى الفشل، المنتج لانحلال القوى وذهاب الدول". وقد صدّرت مجلة الخليل هذه المقولة في عددها الخاص بندوة الإمام، هذه الشخصية العمانية المرموقة التي كان لها دور علمي وحضاري وسياسي أسهم في استقرار حقبة مؤارة بالفتن والتشتت والجهل في عمان وأقاليمها المحيطة، فترك إرثا واسعا يُستمد منه العلم والحكمة؛ فناقشه نخبة من العلماء في أوراق بحثية محكّمة، وحضره طلبة العلم والباحثون والمهتمون؛ ليستعرضه العدد الخاص الذي بين أيدينا في ستة محاور، هي:

- محور سيرة الإمام الخليلي وتكوينه الفكري.
- المحور السياسي والإداري ونظام الدولة: تولّيه الإمامة، واستخلافه الإمام غالب بن علي من بعده، والإدارة، والولاية، والقضاء، وعلاقات الإمام بالشخصيات الوطنية والدولية.
- المحور السلوكي والتربوي والتعليمي: مدرسته ومنهجه التعليمي وطلابه والزهد والورع والسخاء.
- المحور الاجتماعي، ودور الإمام في الوحدة الوطنية والرعاية الاجتماعية.
- المحور الفكري واللغوي والأدبي، وأجوبة الإمام وآراؤه في أصول الدين، وأصول الفقه، والفقه، والمقاصد، وثقافته الأدبية، وأسلوبه الكتابي.

- التراث المخطوط والوثائقي والشفهي حول الإمام الخليلي، وما كتبه أو كُتب عن من كتب، ودراسات، ووثائق، ومراسلات، وعهود، ومذكرات وصور، وشهادات طلابه وعمّاله وقضاته ومعاصريه من العمانيين والأجانب.

افتتحت أعمال الندوة بنبذة عامة عن حياة الإمام الخليلي وسيرته، قدّمتها الدكتورة مبارك بن عبدالله الراشدي من كلية التربية بجامعة السلطان قابوس، تناول فيها مولد الإمام بولاية سمائل في عام ١٢٩٩ للهجرة، وترعرعه في كنف العلم طالبا ومعلّما، وتوليه للإمامة بعد مقتل الإمام سالم بن راشد الخروصي سنة ١٣٣٨هـ، حتى صار إماما وعالما كبيرا شهد له الإمام نور الدين السالمي حينما قال عنه: "ليس بأقل درجة من جدّه العلامة سعيد بن خلفان الخليلي". وتطرقت هذه الورقة كذلك للحديث عن المنهج التربوي الذي اتبعه الإمام الخليلي في حياته، فتخرّج على يديه الكثير من طلبة العلم الذين يُشار لهم بالبنان. كما أبان الباحث عن الزهد والتواضع الذي لازم الإمام طول حياته، وما بيعه لأمواله وثروته الكبيرة التي ورثها من أبيه، وإنفاقها خدمة للمجتمع، إلا دليلا على زهده لترف العيش ومتاع الدنيا.

وقدّم الدكتور أحمد بن يحيى الكندي من قسم أصول الدين بجامعة السلطان قابوس، ورقة عنوانها: (شخصية الإمام الخليلي من خلال رؤية تلميذه الشيخ يحيى بن أحمد الكندي)، فعدها بمثابة شهادة كبيرة لشخصية عايشة وترتبت في عهد الإمام، فوصفه أنه يمتلك شخصية فذة لها تأثير واسع على المجتمع العماني؛ إذ تمكّن الإمام من إيجاد توازن على المستوى السياسي والمعيشي مدة نصف قرن؛ وذلك رغم الحصار الاقتصادي والضعف المادي والعسكري الذي عانت منه الإمامة. كما تقدّم هذه الورقة معلومات عن النظام الإداري للدولة، وعلاقة الإمام بالولاة والقضاة، والعديد من القضايا المهمة التي نقلها الباحث سمعا من أبيه الذي عايش الأحداث عيانا، فشهد له بقوة ملكته العلمية ونباهته وسعة فقهه، وتشجيعه لطلبة العلم وصبره عليهم. وتحدث الكندي في ورقته نقلا عن أبيه العلامة يحيى بن أحمد الكندي، عن صفات الحاكم العادل القويّ التي رسمت ملامح الشخصية السياسية والإدارية للإمام الخليلي، فكان له دور في حل العديد من النزاعات القبلية والطائفية بين الناس؛ فمن ذلك عدّ أنموذجا في القدوة في مجتمعه بين عامة وخواصهم.

وطرح أ.د. قاسم بن أحمد بالحاج، من جامعة الجزائر، في ورقته جوانب التميّز في شخصية الإمام الخليلي؛ إذ وضع مجملها تحت سقف: الوطنية، والمرجعية الدينية، والإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي، والعطاء العلمي. وامتألت حياته العامة ببذل الغالي والنفيس في سبيل تحصيل العلم وتسيير شؤون دولته، فأنشأ مدرسة لتعليم الذكور وأخرى للإناث، وبسط الأمن والسلام في ربوع عُمان؛ وذلك بتوقيعه لاتفاقية السيب التي أنهت صراعا محتدما بين أبناء دولته، وأقام علاقات خارجية مهمة .. كل ذلك لم يمنعه من أن يكون حازما في محاربة الباطل وإبادة الظلم والاستبداد.

وقدّمت د. بدرية بنت علي الشعبية دراسة عن مدى تأثير المرأة في حياة الإمام محمد الخليلي، ومدى اهتمامه بها بعد توليه الإمامة، عنوانها: (المرأة في حياة الإمام محمد بن عبدالله الخليلي)، إذ تجلّى ذلك في تشجيعه للمرأة على الثقافة والعلم والمعرفة، خصص غرفة بحصن نزوى لتعليم المرأة، وكان حريصا كل الحرص على الاستماع لهنّ، ودراسة شكواهنّ ومتطلباتهنّ. كما تناولت هذه الدراسة دور نساء أسرة الإمام الخليلي في تكوين شخصيته، أبرزها علاقته بوالدته شيخة بنت ناصر السعدية التي غرست مكارم الأخلاق الحميدة فيه، وعلاقته بأخته وعمته وزوجاته وابنته الوحيدة عائشة، فبقدر ما أخذ منهن طابع التدبّر والاستقرار النفسي، كان عادلا مع جميعهن حتى في وصيته. وقد عُرف عن الإمام الخليلي حفظه لحقوق المرأة في حالات السلم والحرب، والزواج والطلاق، والغنى والفقر، فأولى في إمامته اهتماما بشؤون المرأة؛ حين وضع قدرا للعالمات الفقيهات، وسمح بمقابلة النساء والجلوس إليهن، ومكّنهن من مزاوله مهن التربية والتعليم والتمريض وغير ذلك مما يصون كرامة المرأة ويحفظ شرفها.

فيما كانت (الصفات الخُلقية للإمام محمد بن عبدالله الخليلي - الجانب السلوكي) عنوانا لورقة الأستاذ جمال رمضان العيسيين، فعرض فيها ما اتصف به الإمام من سلوك ومعاملة، ودرس تأثيرها على الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. وقد شبّه الكاتب سيرة الإمام الخليلي بالخليفة عمر بن عبدالعزيز؛ وذلك في تقواه وزهده وورعه، وقوته وشجاعته وصبره، وكرمه وسخائه، فما عُرف عنه غير الأدب والتواضع

والذكاء عند مخالفته للغير، وقد تفرّس في حنكته السياسية بين الشدّة واللين، فكان مهابا مجتهدا ومتقانيا في تسيير أحوال الشعب وأملاك الدولة، يغلب الصالح العام عند قضاء مصالح العباد.

وقد تقصى الأستاذ توفيق عياد الشقروني، باحث في الهيئة الليبية للبحث والعلوم والتكنولوجيا، شخصية وسيرة الإمام محمد بن عبدالله الخليلي المعرفية والعلمية، من خلال تحليل مراسلاته الشخصية داخليا وخارجيا، تلك المراسلات التي وردت في كتاب (الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل)، إذ بلغت ٩٧ رسالة أبان من خلالها الباحث جزءا من شخصية الإمام، التي كان فيها دقيقا وواضحا في تبيان الأمور، أهمها:

- الثراء المعلوماتي في موضوعات التاريخ والسياسية والاقتصاد والاجتماع.
- العناية بالجوانب الحيويّة والإصلاحية.
- البلاغة والاختصار في الحديث، والانتقال المفاجئ بين المواضيع.
- تعدد محرري الخطابات، مع ذكر اسم كل منهم.
- الحرص على كتابة تاريخ المراسلة.

ومن أبرز ما أفرزته هذه المراسلات، استيعاب الإمام للنقد، وكيفية تفهمه وتقبله لهذه الانتقادات كونه في موضع مسؤولية يُعرض صاحبها للسؤال، فكان في ردوده عليهم حلما ناصحا يعالج الخطأ والخلل. كما دلت كثير من مراسلات الإمام على اهتمامه بالعلم وطلبته، وفتيا الناس في شؤون دينهم، وعلاقاته على المستوى الداخلي مع أمراء وحكام الجوار للمّ شمل الأمة الإسلامية.

وقدّم الأستاذ فوزي بن يونس بن حديد، إمام وخطيب في عُمان، قراءة تحليلية لطريقة انتخاب محمد بن عبدالله الخليلي إماما، فتناول البحث حالة الاضطراب والترقب التي عاشها المجتمع العماني إبّان مقتل الإمام سالم بن راشد الخروصي، فاجتمع أهل الحل والعقد من العلماء لاختيار الخليلي إماما لما امتاز به من حسن سيرة خلقية وخلقية؛ فجنى المجتمع ثمار هذا الاختيار الصائب، أمنيا واقتصاديا، في ظل الوضع السياسي والقبلي الصعب في عُمان مطلع القرن العشرين؛ فكان الرجل المناسب في المكان المناسب، الذي لم يختلف عليه العلماء عند ترشيحه لهذا المنصب العظيم.

وضمن العدد أيضا بحثا تحليليا لوثيقة استخلاف الإمام الخليفي للإمام غالب بن علي الهنائي بعد وفاته، للدكتور سعيد بن محمد الهاشمي من جامعة السلطان قابوس، اختاره الإمام في ضوء الصراع بين العلماء والقبائل سياسيا وطائفيًا، فقد أظهرت الدراسة هشاشة دولة الإمامة في نهاية حياة الإمام الخليفي، إذ أبان بعض العلماء وزعماء القبائل رغبة في عدم استمرار دولة الإمامة ودعم الإمام غالب، إلى أن تعالت الأصوات بالوحدة الوطنية بين دولة الإمام وحكومة مسقط وعمان، حتى ظهرت دولة عُمان الحديثة.

وقدمت د. سناء مهني الباروني، قسم اللغات بجامعة جنوبية التونسية، ورقة بعنوان: (الإمام محمد بن عبدالله الخليفي بين سياسة الشرع والسياسة الشرعية)، فكان ظهور السياسة الشرعية -على حد وصف الباحثة- بمثابة منعطف مهم في عهد الإمام الحاكم، فسياسته الشرعية كانت سياسة إبداعية نبنت عن اجتهاد في الدين لتسيير أمور الرعية؛ إذ وازن بين إدارة حكمه وقراراته السياسية من طريق الأحكام الشرعية والقضائية، فشكلنا منظومة سياسية لإدارة الدولة في الإسلام. بينما ناقشت ورقة د. هادية صالح مشيخي، المعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس، وورقة أ.د محمد بن قاسم بو حجام، جامعة الحاج الأخضر بالجزائر، فتحدثت الأولى عن العلاقة التي جمعت الإمام الخليفي بالمفكر السياسي المغاربي سليمان الباروني ودورها في نهضة عُمان، فكانت للأخير علاقة وثيقة بعُمان، فمدّ جسور التواصل معهم بحكم انتمائه للمذهب الإباضي، كما أن له خبرة واسعة في المخططات السياسية والواقع الإسلامي، مكّنته من توسيع علاقته مع الإمام الخليفي وسلطان مسقط؛ بهدف اتحاد مملكتي عمان آنذاك. وقد أعان الإمام الخليفي الباروني على ما سعى إليه لإصلاح شؤون البلاد؛ وذلك للتقارب الفكري الذي كان بينهما؛ فسانده الإمام في تحديث الدولة ونشر الوعي وتنشيط الاقتصاد، وغير ذلك... فيما عرضت الثانية الأبعاد الحضارية لتلك الإصلاحات في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والصحية والتعليمية، والوقوف عند أبرز العقبات والمعوقات لتذليلها، فأثبتت المواقف والقضايا والصراعات ثبات وقوة شخصية الرجلين في تسيير شؤون الدولة؛ وبذلك نشأت صلات عميقة بين عُمان وبلاد المغرب الإسلامي.

وناقش د. سليمان بن سالم الحسيني في ورقته: (إمامة الإمام الخليلي من منظور استشراقي، دراسة نقدية لأطروحة أوزي رابي)، أفكار عدة لهذا المستشرق الذي جسّد خصائص مناهج المستشرقين المعاصرين في التعامل مع التراث العماني الفكري والسياسي المتمثل في الإمامة الإباضية. وفي أطروحته تحدث أوزي رابي عن مفردات عدة حملها التاريخ الفكري والسياسي العماني كما يزعم، مثل: انفصال المذهب الإباضي وانغلاق على نفسه، ونسبته إلى الخوارج، وعزلة عُمان عن العالم الخارجي، وتدخّل القوى الاستعمارية الغربية في شأنه، مما أدى إلى فرض إجراءات عقابية عليها، كما ادعى أوزي عداء الإمام الخليلي للمسيحيين، وهذا ما خالفه فيه طبيب وقسيس بريطانيان زاروا الإمام وأقاموا معه صداقة طويلة. بيد أن الباحث نفسه أبان في ورقته عن النظرة الأحادية المفتقرة للحيد والموضوعية والإنصاف التي تطرق إليها في دراسته، إذ كان يرجع إلى مصادر الباحثين والساسة الغربيين الذين دونوها في أثناء فترة الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي.

وعرض الدكتور محمد بن أحمد جهلان، كلية الآداب بجامعة غرداية، ورقة بعنوان: (الوحدة الوطنية والإسلامية في فكر الإمام الخليلي من خلال مواقفه وصلاته بأعلام عصره)، توصل فيها عبر مباحثاته وتحليلاته لمواد علمية ومراسلات مخطوطة ومقالات منشورة في الصحف، إلى أن وحدة التراب العمانية واللحمة الوطنية لمجتمعهم تُعد مسألة جوهرية في فكر الإمام الخليلي، إذ أن الظروف الاجتماعية الصعبة والنزاعات الطائفية والعداء القبلي التي عاشها المجتمع العماني، دفعت الإمام لرأب الصدع انطلاقاً من عقيدة راسخة بأهمية وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم. وقد كانت معاهدة السيب بين الإمام الخليلي والسلطان تيمور بن فيصل أنموذجاً حياً للسعي خلف توطيد أرض عمان وإطفاء نار الفتن، فبهذه الاتفاقية تحقّق العديد من المكاسب، أهمها:

- ضمان سلامة العمانيين وحرية تنقلهم.
- إزالة قيود حركة العمانيين في موانئ مسقط.
- تمتع أهالي مسقط والتجار بالأمان في داخلية عمان.

ومنذ عام الاتفاقية ١٩٢٠م، تحققت العديد من المنجزات الداخلية والخارجية، مثل: دعم الوحدة الوطنية، والاستقرار السياسي والأمني، وإرساء منظومة قضائية، وتحسين الوضع الاقتصادي والمالي، وإقامة علاقات وثيقة مع الشعوب الأخرى، وإثبات الهوية الرسمية للمواطن العماني، وربط عُمان بالعالم الخارجي.

وقدّم الأستاذ ناصر بن سيف السعدي ورقة عنوانها: (المجتمع والسياسة في عُمان من خلال جوابات الإمام محمد بن عبدالله الخليلي)، هذه الورقة لخصت حركة تطور الدولة العمانية في النصف الأول من القرن العشرين؛ إذ تقصت الجوانب السياسية في إدارة دولة الإمامة، فكانت إمامة الخليلي نقطة تحول لنشر السلام والتعايش والوفاق بين الإمامة وحكومة مسقط. وفي الوقت نفسه سعوا للاهتمام بقضايا المجتمع العماني، فاهتموا بالجوانب الاقتصادية حين دخلت العملة الورقية التي أسموها "النوط"، كما عالجوا الشأن الثقافي بنشر العلم والمعرفة، أهمها الثقافة الدينية، وغيرها من القضايا مثل اهتمامهم بالعادات والتقاليد والسفر.

وكان لإمامة الخليلي شأن كبير عند علماء المغاربة، إذ ذكر د. الحاج موسى بن بكير بن عمر من الجزائر في ورقته، اهتمامات وعلاقات وطيدة جمعت الإمام محمد الخليلي بعلماء المغرب العربي، منهم: قطب الأئمة الشيخ أحمد أطفيش، والشيخ إبراهيم أو اليقظان الذي أشاد بقدرة الإمام على التوفيق بين النهضة ومبادئ الشريعة الإسلامية، والشاعر مفدي زكريا الأديب الذي نظم تجربة شعرية احتفاء بالإصلاحات والمكاسب التي تحققت في دولة الإمامة، وسليمان باشا الباروني الذي عرض عليه الإمام مسؤولية رئاسة الوزراء منظمًا للشؤون العسكرية والمالية.

ولم تغفل أعمال هذه الندوة عن مناقشة الحركة التعليمية العمانية في زمن الإمام الخليلي؛ إذ قدمت د. بدرية بنت محمد النبهانية، المديرية العامة للتربية والتعليم بمسقط، دراسة عنوانها: (المدارس التعليمية في عهد الإمام الخليلي)، أهمها مدرسته في نزوى، ومدرسة أبي زيد الريامي في الجبل الأخضر، ومدرسة إبراء، ومدرسة الشيخ خلفان بن جميل السيابي ومدرسة الشيخ حمد بن عبيد السليمي ومدرسة الباروني في سمائل.

وكان الإمام مشرفاً ومعلماً ومربيًا، تخرج على يديه جملة من العلماء أثروا الحصيلة العلمية بمؤلفاتهم وتدويناتهم، فكان لمدرسة الإمام منهج تعليمي قاده نخبة من المعلمين آنذاك، يُصرف عليه من بيت مال المسلمين وبعض مال الوقف.

وسرد د. سليمان بن سعيد الكيومي، وزارة التربية والتعليم بالسلطنة، بعضاً من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية في نزوى في عهد الإمام؛ وذلك استناداً على كتاب: (الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل). وقد كانت مدينة نزوى عاصمة الإمامة في فترة حكم الإمام الخليلي، ارتبطت بنمط حياة اجتماعي غلبت عليه سلوكيات معينة، مثل: السفر نحو شرق إفريقيا والاستقرار لفترات طويلة للعمل في زنجبار، كذلك انتشرت عادة تلقين الميت الشهادتين بعد دفنه، فنصح الإمام بتركها كونها لا تجدي نفعاً، ومن العادات أيضاً صلاة السحور في رمضان، التي نصح الإمام بأن يؤديها الفرد في المسجد باعتبارها مثل صلاة التهجد، أو في بيته قبل صلاة الفجر. ومن مظاهر الحياة الاقتصادية آنذاك استعمال العملة النقدية (القرش)، وتنشيط الزراعة، والاهتمام بالمياه والأفلاج والري.

ونسوق لك عزيزي القارئ عدداً من المصطلحات العمانية التي أوردها كتاب الفتح الجليل، هذا البحث اشتمل عليه د. محمد بن يحيى الراشدي، جامعة نزوى، إذ أن هذه المصطلحات شملت مجالات عدة: اجتماعية، واقتصادية، وثقافية وسياسية. وقد ساقها الباحث على أوزان مصنفة، مثل وزن القياس: بهار ورطل وجراب وجونية ودعن والصفّر والمنّ. ثم مصطلحات الريّ: أثر ماء وبأدة وساقية وتصريح الساقية والزجر وشرجة وصوار وقلج وعامد الفلج والتّرف ووجين الفلج. كذلك مصطلحات الزراعة والممتلكات، أهمها: أمبا وجلبية وورموم وزور والسحّ والصّرم وضاحية والعاوية وعاضد وعيش والقنّ والمال والمبسلي والمسطاح. كما ذكر لفظ (خنجر)، وهو أحد مصطلحات الزينة واللبس، وزابن الذي يصنف في مجال المعاملات التجارية، وبعضاً من مصطلحات المهن والحرف، مثل: بيدار والجّمّال والحمامير والدّلال. وقد عمد الباحث في مقاله إلى تعريف كل مصطلح.

وقد قدّم د. أحمد عبدالمنعم حالو، جامعة نزوى، ورقة بعنوان: (البناء الفني في رسائل الإمام محمد بن عبدالله الخليلي). يقول الدكتور حالو: "الموضوع في هذا البناء الفني أس وأساس، والمنتقى هدف يحرص على إرضائه وإيصال المعلومة إليه بحسب درجته وإمكاناته". ويشير الباحث إلى أن البناء الفني في رسائل الإمام الخليلي تشتمل بدءاً ومقدمة تتضمن التحية والسلام وذكرًا للمرسل والمرسل إليه، ثم حسن دخول إلى الموضوع، يتبعه عرض الموضوع بإيجاز، ومقتضيات القضية التي سئل فيها الإمام، وأخيراً ختام الرسالة مع الدعاء والتوقيع وتاريخ المراسلة.

وقدّم أ. د. عيسى بن محمد السليمان، كلية العلوم التطبيقية بنزوى، قراءة دلالية لمدايح أبي سلام سليمان بن سعيد الكندي في الإمام الخليلي، أبان فيها عن منجزاته وشخصيته القوية وتواضعه وسعيه لتحقيق الوحدة الوطنية. وذكر الباحث أن النص الشعري الخارجي لأبي سلام جاء محاكياً للنص القديم في الوزن والقافية والمكونات الأخرى. وقد خلّد ديوان أبي سلام الكندي الجهود العلمية والعملية للإمام الخليلي، منها تلك القصيدة التي سجّل فيها حادثة عبري التي انتصر فيها الإمام الخليلي على أعدائه ومناوئيه، إذ قال في مطلعها من البسيط:

اليومَ أصبحَ هذا القطرُ مبتسماً وأصبحَ الدهرُ بيني كلَّ ما هُدمَا

وكذلك الحال عند انتصاره في حادثة الحمراء، قال من الوافر في قصيدة أبياتها أربعة وأربعين:

ألا بشرى إمامَ المسلمينا بنصرٍ من إله العالمينا

وقد عُرف عن شعر أبي سلام لغة البناء العمودي، رسم فيها من خلال بعديها التركيبي والمعجمي قائداً وإماماً خلّدت تضحياته واستبساله رمزا وطنيا عند أحداث توحيد البلاد.

كما عرض أ. د. مبارك بن عبدالله الراشدي، جامعة السلطان قابوس، بحثًا بعنوان: (مكانة الإمام الفقهية من خلال أجوبته)، إذ أنه أظهر في اجتهاده تمسكا بالقرآن والسنة والإجماع؛ وذلك في استدلالاته وتخريجاته الفقهية، فلإمام مكانته الفقهية ومنهجيته في استخراج الأحكام من مظانها، وربطه بين الدليل النصي والواقع الاجتماعي المعاش. وقد أظهر الإمام براعة في استعمال الأدلة الفرعية (القياس والاستحسان والمصالح المرسله)، ودعا إلى المرونة الفقهية والاجتهاد عند الحاجة ومحاربة البدع واتباع القدوة. فيما ناقش د. مصطفى بن محمد شريقي، من جامعة الشرقية، مسائل العقيدة وعلم الكلام في كتاب (الفتح الجليل). إذ تناولت الورقة البحثية الجانبين العقدي والكلامي من أجوبة الإمام محمد بن عبدالله الخليفي في هذا الكتاب، ومدى اعتمادها على المصادر الأصلية من الكتاب والسنة والعقل، وطرائق الاستدلال المستعملة في فهم النصوص وتأويلها. بينما قدّم أ. جابر بن سليمان فخّار، إمام وخطيب بمسقط، دراسة في معالم الفكر المقاصدي عند الإمام محمد الخليفي من خلال نفس الكتاب، فكشف في بحثه عن أثر معالم هذا الفكر وأثره في الاجتهاد والفتوى، ودور المدرسة الإباضية في هذا العلم. وقد مثّلت المصنفات الفقهية في كتاب الفتح الجليل تطبيقًا عمليًا لنظرية المقاصد، فكانت مقاصد الشريعة في فكر الإمام الخليفي كالآتي:

(١) الدليل على رعاية الشريعة للمصالح.

(٢) الأحكام بين التعليل والتعبُّد.

(٣) أنواع المقاصد ومراتبها.

(منهج الفتوى عند الإمام الخليفي)، دراسة قدمها د. صالح بن سعيد الحوسني، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ضمن أعمال الندوة. ونشير إلى أن هذا المنهج، رغم أن الإمام كان مجتهدًا في عصره، تعامل مع الأدلة الشرعية الأصلية والتبعية، ومع أقوال غيره من العلماء، ومع آراء المذاهب الإسلامية الأخرى. كما تعامل منهج الإمام مع مسائل الخلاف وعلماء عصره والسابقين سواء من مذهبه أم المذاهب الأخرى، فنهى عن تخطئة الآخرين في المسائل الخلافية؛ بل أمر بتصحيح الأقوال أو ردّها، واختيار المناسب والأرجح منها، والتوقف عند عدم معرفته بالحقيقة. وشارك د. صالح بن خلفان البراشدي بورقة عنوانها: (المنهج الفقهي عند الإمام محمد بن عبدالله الخليفي)، وقف فيها على فقه الإمام ومحاولة استنباط منهجه ودراسة

فتواه، فخلصت دراسته إلى تميّز الإمام في الجانب العلمي في الفقه والتحديث والتفسير، فتارة يستدل بالقرآن والسنة، وفي أخرى بأقوال الصحابة، وتارة ثالثة يلجأ إلى القياس والتحليل .. ولم يبخل على الناس في تقديم النصح والإرشاد والدعاء والدعوة إلى المطالعة.

وقدّم الأستاذ إدريس بن بابا با حامد، إمام وخطيب في مسقط، تحقيقاً لبعض أجوبة الإمام الخليلي المحفوظة ضمن وثائق مكتبة السيّد محمد بن أحمد البوسعيدي: مخطوط "صدقة السائل" نموذجاً. هذه الأجوبة أبانت عن المنهج الفقهي الذي اتبعه الإمام، كما أن الباحث ضمّن دراسة وتحقيقاً لنماذج من هذا المخطوط في أبواب اللغة والشرع والاجتماع وغيرها من المسائل الفقهية المعاصرة، واصفاً الإمام بالناطقة في العلوم الشرعية واللغوية والسياسية. وتناول الشيخ حمود بن عبدالله الراشدي، قاض بالمحكمة العليا، سيرة الإمام الخليلي، وزعها على قسمين: الأول من مولده إلى مبايعته بالإمامة، والآخر منذ توليه الإمامة وحتى وفاته. وقد كانت سيرة الإمام -كما نجدها في الورقة- عطرة، فهو طفل نبيه وتلميذ أخلص لشيوخه وأعلامه، وإمام عونٍ وقوة لوطنه ومجتمعه. لخصّت لنا هذه الورقة نسب الإمام وعائلته، ورحلته في سبيل طلب العلم؛ تحديداً في القابل على يد الإمام نور الدين السالمي، بالإضافة إلى مبايعته للإمامة والمهام التي كرس نفسه فيها، ومواقف أخرى، أهمها: مدرسته وأسلوبه ووصيته قبيل موته.

ولم يفوت د. أحمد بن جابر المسكري، كلية العلوم الشرعية، مناسبة الندوة لعرض ورقة علمية تسرد مرويات والده الشيخ جابر بن علي المسكري، الذي يعد أحد تلامذة الإمام الخليلي القلائل الباقين إلى يومنا هذا، المتعلقة بالمنهج التربوي للإمام، فانطلق يتحدث عن أخلاق الإمام وزياراته للقبائل والأماكن، وعاداته في أداء الفرائض والسنن وحلق الذكر، وسفره من مدينة لأخرى، وأساتذته ومرييه وطلبته، وبعض كراماته وبراعته في العلوم، وغير ذلك الكثير مما جاءت به هذه الورقة. وفي الوقت نفسه، أجمل الباحث هذا المنهج التربوي للإمام الخليلي في نقاط، هي:

قوة الإيمان - قوة التركيز - سمو الأخلاق - قوة النفس - قوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - قوة الاختيار - قوة المبادرة.

وتطرق الأستاذ سعيد بن ناصر الراشدي لذات السياق، فقد أجرى حواراً مع أحد طلبة الإمام محمد بن عبدالله الخليلي الذين لا يزالون على قيد الحياة، ألا وهو الشيخ حمد بن عبدالله بن حمد البوسعيدي، ففي هذا الحوار تحدّث الشيخ البوسعيدي عن قضايا عديدة ذات صلة بمدرسة الإمام، مثل: تقسيم وقت الدراسة، وطلبة المدرسة الذي كان الإمام يعرفهم بالاسم واحداً واحداً، ومعيشة الطلبة ولباسهم ونفقاتهم ومصادر التمويل. ثم تحدّث عن الإمام الخليلي كونه معلماً ومربياً فاضلاً، وعوامل اهتمامه بطلبته ومدرسته، وملبسه وحرسه (العسكر)، وغير ذلك من القضايا ذات الشأن التعليمي.

وذكر أ. محمد بن خميس الرواحي في تاريخ بلدة مسلمّات الواقعة بوادي المعاول أنها من القرى المعروفة عنها مبايعة الأئمة الوقوف معهم ومساندتهم لأجل الحق، إذ سرد في ورقته التاريخ الشفهي المروي عن الإمام محمد الخليلي في هذه البلدة، فتحدّث عن معيشة الإمام فيها وتعلمه على أيدي مشايخها وعلمائها، ثم عدّ أبرز تلاميذه في مسلمّات. كما كانت للإمام أموال وممتلكات في هذه البلدة، التي باع جميعها فيما بعد لتقوية دولته، وقد كانت للإمام في هذه البلدة الصغيرة قصص ومواقف وعلاقات مع أهلها، مثلما كان لأهل هذه البلدة إسهامات لدولة الإمامة. وتحدّث د. سليمان الحسيني في ورقة أخرة له عن رجل اشتغل عسكرياً عند الإمام الخليلي مدة ١٠ سنوات، هو موسى بن علي الحسيني وصف علاقته بالإمام أنها امتداد لعلاقة آبائه به حتى قبل توليه الإمامة، فكان عسكر الإمام حاضنة اجتماعية تأخذ طابع الانضباط والمسؤولية، تتوزع الأدوار بينهم حسب مكانتهم وسنّهم وقربهم من الإمام. يقول موسى الحسيني: "السنوات العشر التي قضيتها عسكرياً في خدمة الإمام عرفتني عن كَثب بشخص الإمام، ورأيت تدييره لدولته، فكان كريماً سخياً مخلصاً لقضيته، متأنياً في اتخاذ القرار، يسمع أصحاب الرأي والمشورة". وقد تمكن الإمام بذلك الأسلوب وحكمته وسياسته من اجتذاب قبائل عمان وزعمائها والتقريب بينهم ودرء الفتن ونشر الوئام والخير.

وقد اختتمت أعمال هذه الندوة الدولية بإلقاء قصيدة من بحر الطويل، عنوانها (إمام القلوب) للدكتور أحمد بن يحيى الكندي من كلية التربية بجامعة السلطان قابوس، إذ قال في مطلعها:

قفوا أبردوا شوقي فقلبي هائم ومُدُّوا لطيف الوصل فالشجُو قائم
وواسُوا بنهر الودِّ ظامئٍ حبكم فروحي لنهر الثور كالطير حائم

وقد خرج الباحثون في ندوة: (الإمام محمد بن عبدالله الخليلي ودوره الحضاري والعلمي في عُمان) بنتائج وتوصيات عديدة ومهمة جدا، بيد أنهم كادوا يتفقون على ضرورة إصدار عمل موسوعي يشمل الجوانب الفكرية والسياسية واللغوية والفقهية والاجتماعية في عهد الإمام وحكمه، وعلاقة عُمان بالدول والشعوب والأمم الأخرى، ويتم ترجمته إلى اللغات العالمية، وتوفيره للباحثين والدارسين العمانيين والعرب والأجانب؛ باعتبار أن لهذه الشخصية إسهامات بارزة في كيان وفترة ضجّت بصراعات إقليمية وأهلية كبيرة.

أيها القراء الأعزاء لمجلة الخليل، مجلة جامعة نزوى للدراسات الأدبية واللغوية والقرآنية، نشير إلى أن المجلة سوف تُتاح قريبا في موقع مكتب النشر على الشبكة العنكبوتية بصيغة PDF مقابل رسوم مالية معيّنة؛ نظرا للطلب الواسع لها من الباحثين والدارسين والمستشرقين وعلماء اللغة العربية؛ كونها تعد مرجعا لهم في هذا المجال.